

مكانته جلس الخليفة الثاني عمر بن الخطاب يقسم أموال بيت المال على المسلمين، فأجابه عمر: « إن أسامة كان أحب إلى رسول الله منك، وأبوه كان أحب إلى رسول الله من أبيك». ولكن دين الإسلام لا يعبأ بالأشكال الظاهرية للناس؛ فلقد بلغ من ذلك كله المدى الذي هبأه لهذا الفيض من حب رسول الله وتقديره، وإني لأرجو أن يكون من صالحكم، كان أسامة بن زيد مالكا لكل الصفات العظيمة التي تجعله قريبا من قلب رسول الله وكبيرا في عينيه؛ فهو ابن مسلمين كريمين من أوائل المسلمين سبقا إلى الإسلام، وتلقوا رضعاتهم الأولى من فطرته دون أن يدركهم من غبار الجاهلية المظلمة شيء. فهذا الأسود الأفتس يأخذ في قلب النبي وفي صفوف المسلمين مكانا عليا؛ فرسول الله دخل مكة يوم الفتح العظيم ورديفه هذا الأسود الأفتس (أسامة بن زيد). ذات يوم تلقى أسامة من رسول الله درس حياته؛ ولقد أحرز في مهمته النجاح والفوز، وسبقته أنباء فوزه إلى رسول الله ففرح وسر بها. فطعنته فقتلته. واستقبلت الإسلام يومئذ من جديد. فلا والله لا أقاتل أحدا قال لا إله إلا الله بعد ما سمعت رسول الله. « فهذا الرجل الذي أسف النبي لمقتله، كان مشركا ومحاربا؛ وهو حين قال لا إله إلا الله قالها والسيف في يمينه تتعلق به مزع اللحم التي نهشها من أجساد المسلمين؛ وتحرك بها لسانه يصير دمه حراما وحياته آمنة في نفس اللحظة ولنفس السبب. وفي سن مبكرة لم تجاوز العشرين أمر رسول الله أسامة بن زيد على جيش من بين أفراد وجنوده أبو بكر الصديق وعمر بن الخطاب. وحمد الله وأثنى عليه، ثم قال: « إن بعض الناس يطعنون في إمارة أسامة بن زيد، وإني لأرجو أن يكون من صالحكم، وتوفي رسول الله قبل أن يتحرك الجيش إلى غايته ولكنه كان قد ترك وصيته الحكيمة لأصحابه: (أنفذوا بعث أسامة). وقد عمل الخليفة أبو بكر هذه الوصية، وعلى الرغم من الظروف الجديدة التي خلفتها وفاة الرسول، فتتحرك جيش أسامة إلى غايته، بعد أن استأذنه الخليفة في أن يدع له عمر بن الخطاب ليبقى إلى جواره بالمدينة المنورة. وبينما كان إمبراطور الروم (هرقل) يتلقى خبر وفاة رسول الله، تلقى في نفس الوقت خبر الجيش الإسلامي الذي يغير على تخوم الشام بقيادة الشاب أسامة بن زيد، وهكذا انكمش الروم ولم يعودوا يتخذون من حدود الشام نقط وثوب على مهد الإسلام في الجزيرة العربية؛ وعاد الجيش منتصرا بلا ضحايا،